بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعـــة الثانية

بعد تسعة أعوام من صدور هذا الكتاب مرت خلالها أحداث جسام على العالم الاسلامى ووقعت معظم دوله فى حبائل النصب العالمى فى تجارة العملة والذهب وتعرضت لضغوط اقتصادية شتى •

كما قامت فى مصر تجربة جديدة فى حرية التجارة على طريقـــة شبه رأسمالية أبرزت الكثير من المحاذير التى نبه اليها الاسلام وكشفت عنها الشريعة منذ أربعة عشر قرنا •

فكان لزاما أن أفرد بابا جديدا فى هذا الكتاب لتجارة النقود التى تضمخت لا سيما فى النصف الثانى من القرن العشرين الميلادى وأصبحت تشكل مخاطر كبيرة على اقتصاديات العالم وتمثل أعمالا كثيرة غـــير مشروعة •

وكان لزاما أن يعاد طبع هذا الكتاب وأن يوضع بين يدى الناس رسالة ونداء لنعود الى آداب الاسلام فى التجارة ، وقوانينه السامية فى المعاملات •••• وليعلم النـــاس أن الغاية من حيـــاتهم هى الله والغرض من وجودهم هو تنفيذ ما أمر الله سبحانه وتعالى به واجتناب ما نهى عنه •• وأن فى ذلك سعادة الدنيا والآخرة •

عودة الى شريعة الله الذى يعلم ما لا تعلمون ويعلم ما يصلح خلقه •

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » [1] •

المعادى فى ٢٠ سبتمبر ١٩٨٥ •

عبد السميع المصرى

* * *

---

(١) الملك : ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

يعرف الدين بأنه « خبر صادق » لأنه من عند الله خالق الأكوان وعالم الأسرار : **« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »** [1] .. وهو يعلم يقينا ما يصلح خلقه وينظم شئونهم ويهديهم الى سواء السبيل .

والاسلام هو الدين الكامل الذى جاء بعقيدة يتعبد بها الناس للخالق وبشريعة تنظم حياة المسلمين .

وما كان الاسلام ليغفل شأن المال أهم مقومات الحياة على هذه الأرض ولقد قال تعالى : **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »**[2] لما نزل سبحانه التشريع الأمثل فى المال والخطوط العريضة لنظم الاقتصاد والقوانين الصالحة لكل زمان ومكان فى احاطة شاملة للكليات والجزئيات وللجنس البشرى عامة .

والاسلام يقول « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » على أساس ما يراه الاسلام حلالا وباستنباط حل المشاكل من الكتاب والسنة وهو بذلك يختلف عن الاشتراكية المادية التى ترى أن النظام المادى هو المقياس فى الحياة وتتطور بتطور هذا المقياس .

كما يختلف عن النظام الرأسمالى الذى يقيس الأعمال فى الحياة بمقياس المنفعة فتختلف المعايير والتقديرات باختلاف المنفعة .

بينما يرى الاسلام أن مقياس الأعمال فى الحياة هو الحلال والحرام أى أوامر الله ونواهيه وهى أمور لا تتطور ولا تتغير ولا تحكم بمنفعة بل الشرع هو الذى يحكم .

---

(١) الملك : ١٤ (٢) الكهف : ٤٦ .

فاذا أطلق الاسلام حرية التجارة فهى حرية مقيدة بهذا المقياس الدقيق وخاضعة للصدق والأمانة واحترام العهود كما يقول الرسول ﷺ « المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » .

واذا كان « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » كما يقول الرسول عليه السلام فهى مهنة خطيرة وأساس كبير من أسس الحياة الانسانية على الأرض بل هى الركن الأكبر من أركان الاقتصاد فى الدولة .

لذلك لا نشك لحظة فى أنه لو صلح الجهاز التجارى فى الدولة واستقام أمره وصلح حاله وراقب الله فى عمله وحافظ على عهده ، أو بعبارة أخرى لو أن التاجر كان مسلما حقا منفذا لقواعد الاسلام فى التجارة لكان خيرا ورحمة وسلاما للأمة .

وانا لنرجو فى هذا الكتاب الصغير أن نقدم صورة للتجارة المشروعة الحلال كما يراها الاسلام « **لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** » (٣) .

المعادى فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٥

عبد السميع المصرى

* * *

(٣) سورة ق : ٣٧ .

تمهيد

● صفحة من التاريخ :

التجارة فى أبسط معانيها تبادل منافع ، والانسان منذ وجد على هذه الأرض وهو يعيش فى جماعات ، وكل فرد فى المجموعة الانسانية محتاج الى شىء من سلع أو خدمات الآخرين وعلى ذلك فلا أظننا نخطىء اذا قلنا ان التجارة قد وجدت مع وجود الانسان على هذا الكوكب .

ولقد بدأت التجارة على شكل مقايضة أى اعطاء سلعة مقابل سلعة أخرى وما زالت هذه الطريقة مستعملة فى المجتمعات البدائية كبعض القبائل فى وسط أفريقيا كما أنها تعود للظهور فى المجتمعات المتحضرة لا سيما فى فترات الأزمات الاقتصادية كما تلجأ اليها بعض الدول فى التجارة الخارجية التى تتم على أسس من الاتفاقات الثنائية أو الحصص السلعية .

وأهم صعوبة كانت تعترض نظام المقايضة حالة انعدام التوافق بين ما يريد أحد الأطراف الاستغناء عنه والفائض عن حاجة الطرف الآخر ، كأن يكون أحد الأشخاص بحاجة الى أذرة لكنه لا يجد لدى من حوله الأذرة التى يريدها بل قد يجد لديهم جلودا أو ماشية مما يضطره الى البحث عن شخص ثالث تكون عنده الأذرة وبحاجة الى الجلود أو سلعة أخرى يعمل على الحصول عليها بعملية مقايضة ثانية .

ومع اتساع المجتمعات الانسانية ونمو حركة المبادلة استعانت هذه المجتمعات ببعض السلع الثابتة — سعريا — كأساس لتقييم السلع المعروضة للمبادلة كالغنم والأبقار والتمر وقد ظلت هذه السلع معروفة الى عهود متأخرة مما يدل عليه حديث رسول الله ﷺ المشهور « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر

والملح بالملح ، مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ، فاذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدا بيد » [١] •• وقد أطلق على مثل هذه السلع الثابتة النقود السلعية •

ثم حلت المعادن محل السلع فكانت سبائك أو صفائح أو أسياخ لكن مع اتساع نطاق التجارة لم تعد هذه الوسيلة ملائمة فتولت الحكومات صك النقود من الذهب والفضة وتحديد أشكالها وأوزانها وقيمتها كوسيط للتعامل بين الناس •

وكانت التجارة من أهم موارد الدخل عند العرب كما كانت قوافلهم تقوم بنقل السلع بين شرق الجزيرة العربية وغربها وشمالها وجنوبها وقد سجل القرآن الكريم بعض ذلك فى قوله تعالى : « **لايلاف قريش • ايلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب هذا البيت • الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » [٢] أى جعل لهم فى التجارة الرزق والخير الذى عوضهم عن هذه الأودية الجرداء التى يقل فيها الزرع والماء وجعلهم يألفون رحلات الشتاء الى اليمن ورحلات الصيف الى بلاد الشام •

ثم جاء الاسلام ليدعم هذه المكانة الكبرى للتجارة التى يقول الرسول ﷺ آن « فيها تسعة أعشار الرزق » ويرتفع بقدرها عن مجرد تبادل المنافع الى مكانة الخدمة الاجتماعية والركيزة الحضارية للمجتمع المسلم •

يقول الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى ضمن سلسلة محاضرات ألقاها فى القاهرة عام ١٩٦٩ بدعوة من جريدة الأهرام « أن الفتح الاسلامى لم يكن غزوا وهو كذلك لم يكن استعمار • انه أوجد فى كل بلد فرصة لخلق حضارة من صنع الاسلام ملتحما بالحضارة المحلية سواء أكانت فارسية أو مصرية أو أندلسية أو غيرها •

لقد استقبلت أسبانيا غزاتها بأذرع مفتوحة ولم يكد يمضى عامان حتى كان هؤلاء قد وضعوا أيديهم على ما استغرق استرداده سبعة

---

(١) متفق عليه • (٢) سورة قريش •

قرون ولم يكن ذلك غزوا يفرض بقوة السلاح بل كان مجتمعا جديدا ينشر فى كل اتجاه جذوره القوية • كان مبدأ حرية الأديان هو حجر الزاوية الذى ترتكز عليه العظمة الحقيقية للأمة الاسلامية ، وفى المدن التى كان العرب يسيطرون عليها كانوا يقبلون كنيسة المسيحى ومعبد اليهودى •

ان الاسلام قد نما وتطور فى المدن الكبيرة رغم أنه نشأ فى دولة تسودها الطريقة البدوية فى الحياة وقدم الاسلام للعالم المظاهر الأولى لحضارة تجارية بكل نتائجها المادية والروحية وبذلك أوجد الظروف الاقتصادية والاجتماعية من أجل بعث الانسانية وازدهارها الجديد •

وقد ركز هذا الدين على الغايات الايجابيه التى يجب تحقيقها كما ركز على تحسين وضع الانسان ومما لا شك فيه أن من الأسباب الرئيسية فى ازدهار هذا الدين ونجاحه هو اصراره على محو العبودية وبصفة عامة تأكيد مبدأ المساواة وهو يختلف فى ذلك تماما عن المجتمعات القديمة القائمة على الرق والاقطاع •

وقد أقام نظام الادارة المحلية الذى لم يظهر فى أوروبا الا بعد عدة قرون من الحروب الصليبية والاحتكاك بالاسلام وكان من مظاهر هذا النظام فى المدن التجارية وظيفة المحتسب وهو الرقيب الحقيقى على التجار والمشرف على النشاط الاقتصادى الذى يكفل النظام الأخلاقى » (٣) •

وكان نظام الحسبة الذى يشير اليه جارودى فى كلامه من القواعد التى سنها الرسول ﷺ وجرى العمل بها لتنظيم الأسواق فى حدود مبادىء الاسلام الأخلاقية وهو يبرز ما كان يعطيه الاسلام لمسائل المال عموما والتجارة خصوصا من أهمية لمكانة المعاملات وخطورتها فى المجتمع •

ومع اتساع رقعة الأمة الاسلامية ازداد ازدهار التجارة وأنشئت الطرق الشهيرة التى ربطت العالم الاسلامى ومن أشهرها

---

(٣) نظرية الاسلام الاقتصادية ، للمؤلف ، ص ٨٥ ، ٨٦ •

طريق الحرير الذى كان ينقل عليه الحرير — والسلع الأخرى — من الصين الى بغداد حاضرة العباسيين فى العراق ومن بغداد كان يمتد طريق آخر الى حلب ودمشق ثم موانىء الشام على البحر الأبيض المتوسط •

كما كان هناك الطريق البحرى من جزر الهند الشرقية والهند الى البحر الأحمر فالعقبة أو السويس ومن السويس يتجه الى الاسكندرية ثم موانىء أوروبا على البحر الأبيض الى جانب الطرق البرية الأخرى التى كانت تقطع آسيا وشمال افريقية •

وفى العصر العباسى أنشىء ديوان البريد الذى كان من ضمن وظائفه الاشراف على الطرق واصلاحها وادارة المحطات المقامة على الطريق وحفظ الأمن الذى هو عماد من عمد ازدهار التجارة •

وقد ازدهرت التجارة الاسلامية حتى أصبح التاجر المسلم يكاد يحتكر التجارة الدولية فى العالم القديم وكان هذا المركز الممتاز هو الذى حرك الأحقاد التى انطلقت من أوروبا تحت شعار الحروب الصليبية لتدمر مكانة التجارة الاسلامية وتزحزحها عن مكانتها فى العالم وتفتح الطريق للاستعمار الغربى المستغل •

فكيف تحققت هذه المكانة التجارية العظيمة للأمة الاسلامية ؟

الجواب بسيط ببساطة الاسلام دين الفطرة الذى آخى بين الحياتين المادية والروحية وجعل كل سعى للانسان أساسه أن يكون لله وعلى قاعدة من الأخلاق روح الاسلام وجوهره •

فكان التاجر المسلم مثلا لخلق الاسلام من حسن المعاملة والصدق والأمانة والوفاء بالعهد وكانت حياته قدوة للشعوب التى يتجر معها فاعتنق كثير منها الاسلام لما أحبوا المثل الصالح الذى عاش بينهم فى شخص التاجر المسلم •

فها هى أندونيسيا — ١٢٠ مليونا من المسلمين — وما حولها من ممالك اسلامية لم تصلها جيوش المسلمين بل تعامل معها تجار مسلمون

ـ ويقال انهم سبعة اخوة من جزيرة العرب ـ .. وافريقيه فى شرقها وغربها جنوب الصحراء ينتشر فيها الاسلام وتقوم ممالك اسلامية ـ الصومال ونيجيريا ومالى وغينيا وغيرها ـ بدون حرب ولا غلاب .

لقد اكتسب التاجر المسلم ثقة الشعوب والأمم لأنه تعامل مع الناس على أساس من أخلاق الاسلام وما وضع للتجارة من آداب .. فما هى هذه الآداب التى وضعها الاسلام للتجارة ؟

لقد وضع الاسلام للتجارة آدابها وأسسها أو قواعدها السامية . وسنبدأ فى الفصل التالى الحديث عن آداب التجارة فى الاسلام أولا وسنرى أى سمو افترضه الاسلام فى هذه المهنة الشريفة .

* * *